

ظاهرة الاتحادات والتجمعات القبلية في العراق خلال العهد العثماني

م.د. عبد النبي جاسم بتور

أ.د. حميد احمد حمدان التميمي

جامعة البصرة - كلية الآداب

الملخص

يدرس هذا البحث ظاهرة الاتحادات والتجمعات القبلية التي عرفت القبايل العربية في العراق خلال الحقبة العثمانية، من خلال تسليط الضوء على الظروف التاريخية التي أسهمت في نشأة تلك الاتحادات القبلية، وطبيعة نظامها السياسي والإداري، وعلاقة تلك الاتحادات القبلية مع بعضها البعض من جهة وعلاقتها مع السلطة المركزية من جهة أخرى، وقد دلت المعلومات الواردة في البحث بأن تلك الاتحادات القبلية وبما لعبته من دور في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، كانت إحدى السمات البارزة في تاريخ العراق أبان السيطرة العثمانية.

The phenomenon of tribal unions and groupings in Iraq during the Ottoman era

Dr. Abdul Nabi Jassim Batour

Prof. Dr. Hameed Ahmed Hmdan Altimimi

University of Basrah -College of Arts

Abstract

This research studies the phenomenon of tribal unions and groupings that the Arab tribes knew in Iraq during the Ottoman era, by shedding light on the historical circumstances that contributed to the emergence of these tribal unions, the nature of their political and administrative system, and the relationship of these tribal unions with each other on the one hand, and their relationship with the central authority. On the other hand, the information contained in the research indicated that these tribal unions and the role they played in political, social and economic life, were one of the prominent features in the history of Iraq during the Ottoman rule.

المقدمة

تُعد العشائر جزءاً مهماً من المجتمع العراقي، وكان لها الدور المهيمن والحساس في تاريخ العراق، من خلال تشكيلها لاتحادات وإمارات أثرت في مجرى الأحداث خلال الحكم العثماني، وتمتعت بنوع من الاستقلال في إدارة أمورها الذاتية، وأصبح لها شأن كبير خلال مدة السيطرة العثمانية. وانطلاقاً من تلك الأهمية جاء بحثنا هذا ليلسط الضوء على أهم ظاهرة قبلية آنذاك وهي "ظاهرة الاتحادات والتجمعات القبلية في العراق خلال الحقبة العثمانية".

وقد قسم البحث إلى أربعة محاور وخاتمة، تناول المحور الأول طبيعة تلك الاتحادات القبلية وأهم العوامل التي أسهمت في نشأتها، أما المحور الثاني فقد بحث طبيعة السلطة السياسية والإدارية للاتحادات القبلية وعلاقتها مع السلطة العثمانية، أما المحور الثالث فقد استعرض أهم الاتحادات القبلية التي كان لها دوراً فاعلاً خلال الحقبة العثمانية، وأخيراً تطرق المحور الرابع إلى تطور سياسة الولاة العثمانيين سيما بعد القرن الثامن عشر تجاه التجمعات القبلية، بينما تضمنت الخاتمة أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

أولاً: طبيعة الاتحادات والتجمعات القبلية وعوامل نشأتها

تألفت العشائر من فروع متعددة ارتبطت مع بعضها بالنسب والمصالح المشتركة، ولكن ليس بالضرورة أن كل الفروع تشترك بنسب واحد فبعضها اندمج بسبب التحالف أو غيره من الأسباب، وكانت سمة القرابة والنسب من أهم الروابط التي تربط العشائر العراقية، لكونهم يشعرون بانتمائهم إلى جد واحد، وبقيت صلة الدم على مر التاريخ كما هي، وينصهر الجميع في مجتمع العشيرة الكبير ويقدمون له الولاء^(١).

وإن اسم العشيرة أو القبيلة هو الذي يحفز العشيرة على الوحدة والولاء والتماسك والتكاتف الذي ينهض بها ويمنحها القوة، فبعض العشائر تتألف من جماعات مستقرة مع الجيران الذين يقطنون الوادي أو الواحة أو شاطئ النهر نفسه، أو عند الآبار أو الأضرحة أما العشائر الأصيلية، فتكون رابطة النسب هي السمة التي تكون مؤثرة فيها تبدأ بالانتشار عن طريق التزاوج داخل العشيرة وهكذا يبدأ التوسع والكثرة على مدى قرون، وصلة القربى التاريخية هذه هي التي تؤلف جوهر نواة العشيرة^(٢).

تبدأ العشيرة حياتها على شكل فرع صغير من قبيلة أخرى ثم يتحول بالتدريج إلى عشيرة فمجموعة عشائر لتكون في النهاية قبيلة قائمة بذاتها، ومن المحتمل أن يحصل توقف لهذا النمو في مرحلة معينة، وربما يؤدي تفكك إحدى القبائل إلى انضمام عشائرها إلى قبيلة أخرى أو تتكون قبيلة جديدة، وهذا يعني "أن تحديد نوع الوحدات الاجتماعية المكونة لكل قبيلة، أمراً غالباً ما يعوزه الدقة غالباً"، وظلت المصطلحات القديمة التي كانت تعتمد في التركيب الاجتماعي للقبائل العربية في

العراق تعد أساساً في تقسيم القبيلة وهي: القبيلة، العشيرة، الفخذ، لكن كيان القبيلة عانى من صعوبة تحديد شكله بدقة بسبب ارتباط القبيلة بالظروف الاجتماعية والاقتصادية المتغيرة المحيطة بها^(٣). إن علاقات القربى (صلة الدم) هي أساس كل الوحدات العشائرية التي تكون أساس تشكلها هي العائلة الأبوية الواسعة المتكونة من الأب وأولاده، ومع توسع العائلة وتكاثر أفرادها يطلق عليهم الفخذ الذي تتكون منه العشيرة باتحاد عدة أفخاذ تربطهم القرابة، أما القبيلة والتي هي التجمع الأكبر فتتكون من عدة عشائر^(٤)، وتأخذ القبيلة على عاتقها توفير الحماية لأفرادها وصد العدوان والأخطار التي تواجهها، والحفاظ على الأرض التي يستحوذ عليها هؤلاء الأفراد بصفتهم الجماعية، مع الحفاظ على الأعراف والتقاليد التي تضمن تماسك القبيلة، إزاء الطامعين في أرضهم^(٥).

ويأخذ اتحاد عدة قبائل مختلفة اسمه عادةً من إحدى القبائل المكونة له أو من الأسرة التي ترأسه، وهذا الاتحاد يعرف بالإمارة وفي بعض الأحيان يدعى رئيسه بـ(الأمير) إضافة إلى لقبه التقليدي شيخ، مثل قبائل بني لام المتعددة أو قبائل قشعم المتعددة أو قبائل المنتفق^(٦)، وتميز اتحاد بني لام بأن عشائره حافظت على شخصياتها الخاصة، على النحو الذي جعل هذا الاتحاد يقترب من شكل الحلف القبلي^(٧)، وإن الوحدة الأساسية في تكوين الإمارة هي القبيلة، والتي بدورها تنتسب إلى عدد من العشائر مع ضخامتها واتساع الأرض التي تشغلها، وتفسر ظاهرة تعدد العشائر داخل القبيلة الواحدة بأحد العاملين: عامل داخلي يتمثل في تكاثر أعداد أفراد القبيلة، واتساع رقعة المساحة التي تشغلها وبالتالي زيادة عدد تجمعاتها السكنية، مما يؤدي إلى صعوبة إدارة شؤونها بواسطة قيادة مركزية، ومن الطبيعي أن يكون الميل باتجاه أن تؤلف كل سلالة منحدر من جد بارز عشيرة مستقلة، لها سماتها الخاصة واستقلالها، وتكون نواة للانفصال عن القبيلة الأم وتشكيلها بمرور الزمن قبيلة جديدة قائمة بذاتها، أما العامل الثاني فهو عامل خارجي: ويعد من العوامل الرئيسية في توسع القبائل، أو في نشأتها أصلاً، والذي يتمثل في ميل العشائر الصغيرة، والعشائر المتفرقة إلى الاحتماء بإحدى القبائل القوية، لاسيما عندما تحس بوجود خطر يهددها من قبيلة أخرى، وهو ما حدث في جنوب العراق أبان مدة الحكم العثماني، إذ أدى إحساس هذه القبائل بالأخطار الناجمة عن موقف بني لام والمنتفق النازلين على جانبي دجلة والفرات إلى انشطار هذه القبائل إلى قسمين كبيرين، تحالف كل منهما مع إحدى هاتين القوتين خوفاً من الأخرى لدرجة اندماج بعض هذه القبائل في القبيلة الأخرى الحامية حتى صعب تمييزها عنها^(٨).

ثانياً: الطبيعة السياسية للاتحادات القبلية وعلاقتها بالسلطة المركزية

إن الدولة أساس مهم من أسس الحضارة فإذا قويت الدولة استطاعت أن تسكت النزاع الداخلي وتضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق، فيزدهر الإنتاج الزراعي والتجاري والصناعي، وتعمّر المدن، وينهمك الناس في العمل بحرفهم المختلفة لا يخشون شيئاً، ولما كانت السلطة في العراق ضعيفة لا تستطيع أن تحمي أرواح الناس وتحفظ أموالهم، وجد الناس أنفسهم مضطرين للالتجاء إلى العشائر وقوانينها أو سننها لتجمعهم، يتمسكون بها كلما ضعفت قوة الدولة، أي أن العشيرة أو القبيلة في مثل هذه الظروف تقوم مقام الدولة، فالفرد يجد فيها الحماية والأمان، لاسيما إذا كانت العشيرة قوية عادةً ما تحمي أبناءها في أي مكان يذهبون إليه^(٩).

شهد العراق تردياً في أوضاعه العامة نتيجة تعاقب موجات الغزو الأجنبي عليه، وبذلك احتاج الأفراد إلى حماية أنفسهم وممتلكاتهم بصورة فعلية، ولضعف السلطة الحاكمة تعززت التجمعات القبلية، وأصبحت القبيلة أشبه بصورة مصغرة للدولة، وفرت لأفرادها قدراً من الأمن والحماية، وشكلت نواة لحركة أوسع داخل القبائل في العراق، تمثلت بظاهرة الاتحادات القبلية، التي تألفت من تجمع عدة عشائر تحت سلطة قبيلة معينة، تولى شيوخها زعامة هذا التكتل القبلي، وهي مرحلة متطورة، تخطت نطاق القبيلة الواحدة، إلى تشكيل اتحاد كبير، وبرزت هذه الحالة في المنطقتين الوسطى والجنوبية من العراق، في حين تمكنت العشائر في المنطقة الشمالية من إقامة إمارات قبلية، كما يعزى سبب بروز هذه الظاهرة داخل المجتمع القبلي، فضلاً عن حالة الاضطراب السياسي في البلاد، إلى الحاجة لإيجاد قوة عسكرية تحافظ على مناطق النفوذ القبلي من تحركات العشائر القادمة من بلاد نجد وسوريا، باتجاه المناطق الغربية والجنوبية من العراق، وما يرافق هذه الهجرة، من عملية دفع العشائر القديمة عن مراعيها ومساكنها، ومن هنا برزت الحاجة إلى ضرورة التحالف بين العشائر، من أجل توحيد صفوف القبائل بغية المحافظة على أراضيها من الغزو الخارجي، فظهرت اتحادات القبائل كاتجاه جديد في العراق^(١٠).

وهكذا خلفت سيطرة الحكومات الأجنبية المتعاقبة مزيد من الخراب والمآسي والويلات على أبناء الشعب العراقي، فكانت النتيجة أن اتجهت معظم القبائل العربية التي تمسكت بقوميتها العربية وهويتها الاجتماعية، إلى إنشاء الإمارات والمشيخات العربية، والتي برزت على ضفاف دجلة والفرات وسواحل البطائح^(١١) والأهوار، إذ رفضت اغلب القبائل الخضوع للحكم الأجنبي وتمسكت بسيادتها على أرضها وقامت بفرض ضرائب على المواصلات النهرية ومارست كل النشاطات الاقتصادية بحرية واعدت العدة اللازمة لمواجهة الأخطار والتحديات المحيطة بهم، وكانت أكثر هذه الإمارات والمشيخات تأثيراً هي المشعشين^(١٢) وكعب ومشيوخ بني لام والمنطق وربيعة^(١٣).

لم يشعر أفراد العشائر العربية بالحاجة إلى الخضوع لتنظيم إداري أو سياسي آخر غير العشيرة التي منحوها إخلاصهم وولائهم، والمجتمع ذا الأصل البدوي لا يتحمل وجود طبقة تحكمه خارج العشيرة لذلك فهو لا يحب الخضوع للدولة التي تحول بينه وبين القيم البدوية^(١٤)، ويمكن القول إن المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة والأنساب البعيدة وحدت القبائل الصغيرة وخلال المدة ١٥٣٤-١٨٦٩ تحالفت هذه العشائر مع بعضها لأجل الحفاظ على أراضيها التي اعتبرتها ملكاً لها، وتكونت مجموعات قبلية كبيرة ظهرت كإمارات ومشيخات داخلية مستقلة، تصرفت بشؤونها بشكل تام ونفوذ مطلق، على أن تلك التجمعات كانت تتحارب في أغلب الأحيان للحفاظ على حدود أراضيها وممتلكاتها^(١٥)، وأصبحت بعض القبائل في مناطقها كأنها إمارات مستقلة تتمتع بكامل النفوذ على أراضيها مثل المنتفق والخزاعل^(١٦) وزبيد وبني لام والقشعم وطي وشمر، وكان لقبائل طي دور هام في العراق لا سيما شمر وبني لام وكذلك قشعم التي بدأت في الضعف منذ منتصف القرن التاسع عشر. وتوزعت جغرافياً في مناطق حوض نهر الفرات ونهر الغراف في الناصرية وسوق الشيوخ والشطرة كانت تسكنها عشائر المنتفق، وعشيرة الظفير في صحراء جنوب غرب نهر الفرات، وعشائر بني لام والبو محمد^(١٧) والبو دراج والسواعد والسودان والأزيرج في مناطق حوض نهر دجلة وفروعه في العمارة^(١٨).

ومن الجدير بالذكر أن هجرة العشائر لم تنقطع فخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر دخلت العراق عشائر شمر وعنزة والظفير على شكل دفعات؛ بسبب ظروف الجفاف السائد في شبه الجزيرة العربية، لاسيما وأن أرض العراق كانت تجذب القبائل لوفرة المياه والأراضي الزراعية والمناخ المعتدل، وكذلك الخلاف مع الحركة الوهابية، إذ رفضت بعض العشائر أن تخضع إليهم وتسير في ركابهم، ناهيك عن ذلك فإن ترحيب الولاة المماليك (١٧٥٠-١٨٣١) بهم، وشيوخ عشائر المنتفق لرغبتهم في الاستعانة بهم في حروبهم ضد الوهابيين شجع أيضاً بعض العشائر على الهجرة إلى العراق واتخاذها موطناً لها^(١٩)، على ما يبدو أن ذلك شكلاً عاملاً آخر ساهم في قوة الاتحادات القبلية.

وكانت العشائر غير المستقرة تحبذ النزول قرب الأراضي الزراعية وأحواض الأنهار وفروعها، وألفت هذه العشائر اتحادات قبلية قوية قائمة بذاتها، وحدتها الأحداث المشتركة والنظم والتقاليد والقواعد الموروثة، فدخلت في اتفاقيات مع بعضها البعض لأجل المحافظة على استقلاليتها والدفاع عن موطنها ومراعيها، اضطرت معها العشائر الأضعف للخضوع وطلب الحماية منها وفق ما عرف بـ(الخوة)، ومن أهم هذه التجمعات هما تحالفا المنتفق وبني لام^(٢٠).

هذه التكتلات العشائرية بسطت نفوذها على أنحاء واسعة من البلاد وتحدثت السلطة العثمانية التي لم يكن لها إلا نفوذ شكلي فقط، ومع مرور الوقت نشأت أحلاف كبيرة لعبت دوراً في

مجرى الأحداث التي مر بها العراق، وأصبحت في موضع المجابهة الدائمة للسلطات العثمانية، وبذلك حققت هذه الاتحادات أهدافها في حماية العشائر المتحالفة من سيطرة السلطة والقوى المحلية الأخرى وأصبحت قادرة على تحدي السلطة وهزيمة جيشها^(٢١)، لكن تضارب مصالح هذه الاتحادات غالباً ما كان يؤدي إلى النزاع المتواصل، وتسعى كل واحدة للتوسع على حساب جاراتها، أما السلطة العثمانية فهي غير معنية بهذا الصراع مادامت إيراداتها من العشائر تصل كاملة وبعبءه تشجع وتحرض طرف على آخر في إبقاء العشائر على ما هي عليه من خصومة وتنازع^(٢٢)، كانت السلطة تضرب العشائر العربية بالعشائر الكردية وبالعكس، بل كانت تحرض فريقاً ضد آخر داخل القبيلة نفسها والأخ ضد أخيه أو عمه وفق قاعدة (فرق تسد)^(٢٣)، واستمر العثمانيون بترك القوى المحلية الموجودة على الأرض على ما كانت عليه، لذلك نمت هذه القوى التي كانت ميداناً للخلافات والثورات والتمردات العشائرية إذ أصبح الولاة عاجزون عن بسط سيطرتهم على كافة أنحاء البلاد مما جعلهم يلجؤون إلى سياسات أضرت بالمجتمع من النواحي كافة، وفي سبيل فرض سيطرتهم المطلقة لجأ معظم الولاة إلى أن يضربوا العرب بالکرد وبالعكس، كذلك يضربون العرب بالعرب والکرد بالکرد^(٢٤).

ثالثاً: أهم الاتحادات القبلية خلال الحقبة العثمانية

برز في ذلك الوقت أربعة تكتلات قبلية، هي قشعم، أبي ريشة، بني لام، والمننق، وفي حين لم يحتفظ اتحاداً قشعم وأبي ريشة بقوتها لفترة طويلة، تألف اتحاد قشعم في بداية القرن السابع عشر، وكانت كربلاء قاعدة حكمه، وبسط نفوذه على رقعة كبيرة، تبدأ من حوض نهر الفرات، مروراً بالحلة إلى النجف، ويبدو أنه كان مستقلاً عن سيطرة العثمانيين. أما التكتل الثاني الذي كان مركزه في مدينة عانة فإنه ضم الموالي، وبعض فروع عنزه والجبور، وعرف بالقوة، والسطوة غير المحدودة، مثلتها زعامته، أبي ريشة. ولعدم مقدرة العثمانيين على القضاء عليه، اضطروا إلى مسابرتة، وأقروا بسيادته في المناطق التي يحكمها، وشملت هيت إلى الحدود السورية، ثم أنهار هذا التجمع القبلي، في القرن الثامن عشر، وتجزأت قبائله. وبقي بني لام والمننق اللذين امتد نفوذهما لمنطقة واسعة، لمدة متأخرة من القرن التاسع عشر، كقوة قبلية لها وزنها ومكانتها، وأنفتح المجال أمام هذين الاتحادين، ليكونا محور التجمع القبلي، وتركا تأثيراً واضحاً في تاريخ المنطقة الإقليمية، إذ تعددت في إطارها تبعية القبائل القادمة إلى هذه المنطقة، ووجب عليها تقديم الولاء للاحد هذين التكتلين، وفي ظل هذه السيادة القبلية لبني لام شرقاً والمننق غرباً، تحددت الخارطة القبلية في

المنطقة الجنوبية، بين القبائل الفاطنة فيها والوافدة إليها. مما ولد صراعاً دامياً بين هاتين الزعامتين القبليتين في منتصف القرنين السابع عشر والثامن عشر^(٢٥).

وتكون اتحاد المنتق (المنتك) من قبائل كثيرة من شمال الناصرية حتى البصرة، وفي القرن الثامن عشر للميلاد سيطر الاتحاد على قسم من نهر الغراف في الشطرة، وقلعة سكر وقرى حطامان، وتمتد ديرتهم من الفاو إلى أعالي السماوة^(٢٦)، ويشار إلى أن هذين الاتحادين هما من أهم الاتحادات القبلية التي كانت من أكبر القوى الضاغطة على السلطة العثمانية في بغداد، وفي ذات الوقت كانا قطبان رئيسان في المنطقة الجنوبية من العراق النصف حول كل منهما مجموعة من القبائل والعشائر، ولكن هذين الاتحادين خاض كل منهما صراعاً طويلاً ضد الآخر، هذا الصراع الذي استقطب القوى القبلية كافة. وكان على القبائل والعشائر في جنوب العراق أن تحدد موقفها من المحورين القبليين بني لام شرقاً والمنتق غرباً، فبهذا الموقف تتحدد مواطنها وسيادتها وبانت منطقتي القرنة والغراف مسرحاً لمعارك دامية بين هذين الاتحاديين الكبيرين^(٢٧).

إن هذه الاتحادات العشائرية كانت تشبه الحكومات الصغيرة ونفوذهم يسود معظم أنحاء العراق، ولا سلطان للحكومة إلا في مراكز الولايات وفي الحواضر الكبرى، وأما المناطق والقرى فكان تتنازع حكمها القبائل الرئيسية، وتقوم بكل مهام ووظائف الحكومات، فهي تقيم الحدود الشرعية وتنفذ العقوبات وفق نظام قضائي خاص بها، وتتحكم في الأراضي وفق ما يحدده شيوخها، وتجمع الضرائب والرسوم القانونية وتزاول معظم الأعمال التي تزاولها الإدارات المحلية في البلاد وكأنها مؤسسات رسمية قائمة بنفسها^(٢٨).

كان اتحاد بني لام أحد الكتل القبلية الكبرى في جنوب شرق العراق الذي بات له تأثير في أوضاع العراق الداخلية كونه يسيطر على أرض حدودية مهمة تميزت بالتوتر، وتعد من أغنى مناطق الزراعة والرعي في العراق، وكذلك فهي تشرف على الطرق النهرية والبرية بين بغداد والبصرة، وخلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني، اتسم الوجود الاجتماعي والسكاني لمناطق سقي دجلة الجنوبي والمناطق القريبة بالطابع القبلي، إذ سيطر هذا الاتحاد بتقاليده وأعرافه وسننه القبلية على: "أرض شاسعة تمتد من وسط إقليم الأحواز وسفوح جبال لورستان^(٢٩) شرقاً إلى ضفاف نهر دجلة غرباً ومن شواطئ نهر ديالى شمالاً حتى مدينة القرنة جنوباً"^(٣٠)، وأرقت هذه المشيخة العثمانيين وأثارت مخاوفهم لسيطرتها التامة على الملاحة في دجلة بين ولايتي بغداد والبصرة، إذ سيطرت هذه المشيخة على شرق نهر دجلة وغربه^(٣١)، وتعامل العثمانيون مع العشائر على أساس قبول الأمر الواقع، مع مراعات التقاليد الاجتماعية والعرفية السائدة لدى هذه العشائر وتركت إدارة شؤونها الداخلية بيد شيوخها بحسب تقاليدهم المتعارفة والاعتراف بسلطتهم في مناطقهم، ويتم تثبيت الشيخ على وفق فرمان رسمي أو أمر من السلطان على أن يلتزم بالشروط

المتفق عليها مع السلطة، والتي أهمها دفع الضرائب وضمان عدم الاضطراب^(٣٢)، وعندما لمس ولاية بغداد قوة بني لام وسعة سطوتهم في المنطقة، وانضمام كافة قبائل سقي جنوب دجلة وشرقها لهم والتي تمتد من شمال القرنة وحتى جنوب نهر ديالى، أقروا بنفوذ شيوخ بني لام وقوضوا لهم الأراضي بطريق الالتزام، وأصبحوا هم بذلك واسطة التقاهم مع العشائر الأخرى، واستمرت قوة هذا الاتحاد حتى أواخر العهد العثماني، ودخلت معهم عدة قبائل في تحالفات واتفاقيات^(٣٣).

واتخذت العشائر التي نزحت من الجزيرة العربية من وديان وسهول وبادية العراق مرتعاً لها، واستقرت بالقرب من الأنهار، ولكونها ترتبط بروابط اجتماعية عميقة الجذور تمسكت بقيمتها وعاداتها العشائرية واستطاعت المحافظة على كيائها في مواجهة الأخطار، وساهم اضطراب الأوضاع الاجتماعية في زيادة قوتها وتماسكها^(٣٤)، وفرضت طبيعة الحياة حركة دائمة للقبائل العربية التي تقيم مضاربها في البادية أو أطرافها صيفاً وشتاءً وبحسب مدى توفر الماء والمرعى، وتنتقل من مناطقها الشتوية في أواخر الربيع وأوائل الصيف إلى الأطراف المزروعة لتتمكن من إطعام مواشيتها مما يتبقى في الأرض بعد موسم الحصاد. وتبقى في هذه الأمكنة حتى بداية الشتاء، فتنتقل إلى المناطق القريبة من أرياف العراق والشام ويتحركون إلى القفار للرعي والفرار من أذى البرد فهم في حركة دائمة بين الريف والصحراء^(٣٥).

رابعاً: تطور سياسة الولاة العثمانيين تجاه التجمعات القبلية

لم تجري أية محاولة إيجابية لمعالجة المشاكل القبلية ما عدا استحداث منصب باب العرب في ولاية حسن باشا (١٧٠٤ - ١٧٢٣)^(٣٦) يتولاه أحد الوجهاء العرب ليكون حلقة الوصل بين والي والعشائر العربية^(٣٧)، وفشلت محاولات إيجاد حل جذري لمشكلة العشائر أو تنظيم حركات الهجرة العشائرية سواء داخل العراق أو الهجرات الوافدة إليه، هذه العوامل حالت دون اتخاذ سياسة يمكنها أن تحد من حركات أو ثورات العشائر أو تجعلها خاضعة كلياً للسلطة^(٣٨)، وظهر لأول مرة في عهد المماليك تدخلهم الرسمي لإقرار الشيخ المعين على عشيرته، إذ أن الشيخ كان يحصل على ترشيحين للمشيخة العشائرية، الأول من قبل العشيرة، والآخر من والي، وأعتبر الأخير هو الأساس حتى تعطى رئاسته صفة رسمية، وبرز هذا التدخل مع المشيخات الكبيرة كالمنتفق وبني لام والخزاعل، إذ كانوا في سعي متواصل لتبديل شيوخ العشائر، وتثبيت آخرين موالين لهم، قادرين على إبقاء عشائرتهم مستقرة وهادئة ومنقادة لهم. ويبدو أن الولاة المماليك أدركوا أهمية بقاء العشائر منقادة لهم، وأن أفضل سبيل لذلك هو كسب ولاء رؤساء العشائر، لأنهم يمثلون السلطة العليا لدى عشائرتهم. وبدت هذه السياسة، أنها هدفت لإيجاد قوة عسكرية احتياطية من مقاتلي العشائر، تقف

إلى جانب الولاة عند الأزمات، فمساحة العراق كبيرة، وليس من السهولة بسط السيادة الحكومية عليها، فالعجز في عدد القوات العسكرية، أوجد حالة بديلة، دفعت الولاة المماليك إلى توظيف العشائر في حملاتهم العسكرية، وأشركوا القوات العشائرية في معظم عملياتهم الحربية، وكشف عهد المماليك عن العديد من المشاركات القبلية المهمة، وحشد كل وال إلى جانب الجنود النظاميين، مقاتلي العشائر المؤيدة له، حتى كان لكل وال عدداً من العشائر المقربة إليه، كانوا يعدونهم القوة الاحتياطية التي كانوا يستمدون منها قوتهم، ويعوضون أي نقص حاصل في جيشهم، ويمكن القول إن المماليك عن طريق التدخل في مسألة اختيار شيخ القبيلة، نجحوا في كسر جانب مهم من الأعراف والتقاليد القبلية، حولت بموجبه الإقرار بالمشيخة، يرجع بالأساس إلى الموافقة الرسمية من الولاية (٣٩).

الخاتمة

كان للاتحادات والتجمعات القبلية أثر مهمّ ودور بارز في أحداث تاريخ العراق الحديث، إذ شغلت مكانة متميزة وكان لها أثر كبير في تاريخه، لما امتلكتها من علاقات مع محيطها، واستعدادها الدائم لمواجهة المخاطر المحدقة بها، وكانت الأرض أو ديرة العشيرة من أهم الأمور وعاملاً مهماً من عوامل الصراع العشائري الذي ادخل العشائر في مواجهات حربية كثيرة، مع جيرانها ومع السلطة العثمانية بهدف الحفاظ على السيادة العشائرية والنفوذ بمناطقهم، ومن ثم ضرورة تأمين متطلبات الحفاظ على الأرض وأهمها القوة التي تتأتى من الاتحاد أو التجمع، وبذلك تحافظ على أبنائها، وتواجه السلطة العثمانية التي أثارت النزاعات بين تلك التحالفات العشائرية لغرض تفكيكها.

Journal of Historical Studies

الهوامش

(١) جاسم محمد هادي القيسي، أحوال العراق الاقتصادية والاجتماعية ١٨٣١-١٨٦٩، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٥، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) فردوس عبد الرحمن كريم اللامي، لواء العمارة في العهد العثماني ١٨٦١-١٩١٤، (بغداد، ٢٠١٣)، ص ٥٣.

(٣) عماد عبد السلام رؤوف العطار، الحياة الاجتماعية في العراق إبان عهد المماليك ١٧٤٩-١٨٣١، أطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٧٦، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٤) توماس فريديريك، وليمسون، التاريخ السياسي لشمر الجربا-قبيلة من الجزيرة (١٨٠٠-١٩٥٨)، ترجمة: جوزيف نادر بولص، ط ١، (الأردن، ٢٠١٠)، ص ٢٦-٢٧.

(^٥) عماد عبد السلام رؤوف العطار، المصدر السابق، ص ٢٥١.

(^٦) **المنتفق**: هو عبارة عن اتحاد تكون من ثلاث قبائل هي بني مالك وبني سعيد والأجود وأصلهم يرجع إلى المنتفق بن عامر بن ربيعة (في رواية أخرى-بن عقيل) بن كعب بن عامر بن صعصعة، كانوا ينتشرون بين العراق والجزيرة العربية، وديارهم في العراق في العهد العثماني كانت في الحي وشطرة المنتفق وهور الحمار وسوق الشيوخ والبطحاء والبدعة وبني أسد وبني سعيد والمشارطة وقلعة سكر ونهر الغراف وعدد من المناطق الأخرى. للمزيد ينظر: مجلة لغة العرب، صاحب الامتياز انستاس ماري الكرمللي، ج ٢، آب، ١٩١١، ص ٤١-٥١، ٢١٧-٢٢٦.

(^٧) عماد عبد السلام رؤوف العطار، المصدر السابق، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(^٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(^٩) جواد رضا رزوقي السبع، سياسة الحكومات المتعاقبة تجاه العشائر وأثرها على المجتمع العراق ١٨٦٩ - ١٩٥٨، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، ع ٢٧، ٢٠١٢، ص ١٦٥.

(^{١٠}) مؤيد احمد خلف الفهد، السياسة العثمانية تجاه العشائر العراقية (١٧٥٠ - ١٨٦٩)، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠٠٢، ص ١٣.

(^{١١}) **البطائح (بطيحة)**: ينبطح السيل إذا اتسع في الأرض، وهي أرض واسعة تشمل المستنقعات الواقعة في أسفل نهر الفرات بين الكوفة وواسط وإلى البصرة جنوباً. أطلق عليها أيضاً اسم الأهوار: جمع هور، وهو مصطلح يطلق على الأرض المنخفضة التي تغمرها المياه على مدار السنة، وينمو فيها القصب والبردي وبعض أنواع الحشائش، وهي موجودة في العراق منذ أقدم العصور. طارق نافع الحمداني، مدن العراق وقبائله العربية في العصر الحديث، (بيروت ٢٠١٠)، ص ٥٧؛ للمزيد ينظر: حسين الزيايدي، أهواز جنوب العراق-أرضاً وسكاناً، ط ١، (بيروت، ٢٠١٩)، ص ٢٣-٤٩.

(^{١٢}) نشأة دولة المشعشين العربية في منطقة عربستان التي عرفت قديماً خوزستان في أيام المغول سنة (٨٤٠هـ - ١٤٣٦م) وبعضهم يذكر أنها تأسست في (٨٤٤هـ - ١٤٤٠م) وعاصمتها الحويزة، وتتسب إلى السيد محمد بن فلاح الملقب ب(المشعشع) وهو الذي ثبت دعائم الإمارة التي توسعت في عهد خلفائه، حتى ضمت أغلب مناطق الخليج العربي في الجنوب. وامتد نفوذها إلى عدد من المناطق الفارسية واستولت على البصرة والجزائر وحاولت الاستيلاء على بقية أجزاء العراق حتى وصلت إلى أسوار بغداد بعد ما ضربت المواقع الحربية التابعة للمغول في أواسط العراق، والنجف والحلة. وفي عام (٩٠٥هـ - ١٤٩٩م) ظهرت دولة الصفويين في فارس بزعامة الشاه إسماعيل الصفوي فأخذ نفوذ المشعشين بالتقلص من تلك المناطق وكانوا مضطرين إلى مهادنة الصفويين، لاسيما مع بروز الخطر العثماني في العراق، ومع هذا استطاع المشعشعون أن يكتفوا في الحكم مدة طويلة، وصدوا الهجمات المتتالية على عاصمتهم الحويزة من الصفويين والعثمانيين. ثم بدت أمارتهم تضعف، بسبب الصراع الداخلي بين أمرائها فضلاً عن الحروب الخارجية، وبعد ضعفهم أصبحوا تابعين للدولة الصفوية مستقلين في الحكم، إلا أن ضغط قبيلة كعب العربية المجاورة أرهقها، حتى قضي على إمارة المشعشين نهائياً عام ١٧٢٩. عماد عبد السلام رؤوف

العتار، المصدر السابق، ص ١٩٢؛ للمزيد ينظر: جاسم حسن شبر، تاريخ المشعشين وتراجم أعلامهم، مطبعة الآداب، (النجف، ١٩٦٥).

(١٣) فردوس عبد الرحمن كريم اللامي، المصدر السابق، ص ١٤-١٥.

(١٤) أشرف محمد عبد الرحمن، تاريخ العراق السياسي-من نهاية حكم مدحت باشا إلى قيام حكم الاتحاديين ١٨٧٢-١٩٠٨، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٩٣، ص ٧٨.

(١٥) ضياء شكاره، المجتمعات العشائرية في العراق بين البداوة والاستقرار، مجلة العرفان، عدد خاص عن المملكة العراقية عام ١٩٥٥، مج ٤٢، ج ٥-٦، (بيروت، ١٩٥٥)، ص ٥٥-٦٥.

(١٦) الخزاعل: بدأ ظهور الإمارة في عام (١٦٢٣-١٦٣٨)، منح الشاه الصفوي عباس الأول شيخ الخزاعل مهنا بن علي لقب خان، وخوله حكم منطقة الفرات، وبعد هزيمة الصفويين وعودة السيطرة العثمانية أعلن تمرده على السلطة، فقاد الوالي درويش باشا حملة عسكرية تمكنت من هزيمته في عام ١٦٤٠، هرب بعدها إلى الحويزة ولقي الإكرام والحقاوة من أميرها منصور من مطلب المشعشي (١٦٣٤-١٦٤٢)، عاد أحفاد الشيخ مهنا إلى العراق بعد عام واحد وأعادوا ترتيب الإمارة بزعامة سلمان بن عباس بن محمد بن مهنا بن علي الهيس. للمزيد ينظر: متعب خلف جابر الريشاوي، إمارة الخزاعل في العراق-نشأتها وتطورها وعلاقتها المحلية والإقليمية ١٦٤٠-١٨٦٤، ط ١، (النجف، ٢٠٠٩).

(١٧) ينظر: ج.ج. لوريمر، دليل الخليج-القسم الجغرافي، ج ٤، ترجمة: مكتب أمير قطر، (الدوحة، د.ت)، ص ١٥٨٩-١٥٩٠.

(١٨) محمد احمد محمود، أحوال العشائر العراقية العربية وعلاقتها بالحكومة ١٨٧٢-١٩١٨، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٠، ص ٩؛ عبد الجليل الطاهر، البدو والعشائر في البلاد العربية، معهد الدراسات العربية العالية، (القاهرة، ١٩٥٥)، ص ٣٥؛ عبد الكريم محمود غرابيه، مقدمة تاريخ العرب الحديث، ١٥٠٠-١٩١٨، ج ١، (دمشق، ١٩٦٠)، ص ٢١٣.

(١٩) محمد احمد محمود، المصدر السابق، ص ١٠.

(٢٠) إلهام مَحْمُود كاظم الجادر، البصرة - دراسة في أوضاعها الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ١٨٠٣-١٨٦٩، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية التربية الأولى-ابن رُشد، ١٩٩٠، ص ١٥٧-١٥٨.

(٢١) أشرف محمد عبد الرحمن، المصدر السابق، ص ١٥.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٦.

(٢٣) جعفر الخياط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ج ١، ط ١، (د.م، ١٩٧١)، ص ١٦.

(٢٤) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث-من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، (القاهرة، ١٩٦٨)، ص ١٢.

- (^{٢٥}) مؤيد احمد خلف الفهد، المصدر السابق، ص ١٤-١٥، ١٧؛ عماد عبد السلام رؤوف العطار، المصدر السابق، ص ١٩٦.
- (^{٢٦}) عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠، ط١، مطبعة الإرشاد، (بغداد، ١٩٦٣)، ص ١٧.
- (^{٢٧}) عماد عبد السلام رؤوف العطار، المصدر السابق، ص ١٩٠، ١٩٦.
- (^{٢٨}) عبد الرزاق الحسني، العراق قديماً وحديثاً، ط١، (بيروت، ٢٠١٣)، ص ١٥٤.
- (^{٢٩}) تقع لورستان في القسم الغربي من بلاد فارس محاذياً للحدود العراقية من خانقين إلى شمال الأحواز، تمتعت بالحكم الذاتي بزعامة الأكراد الفيلية، وفي عام ١٦٢٢ فتح أحد أمراءهم بغداد بأمر الشاه عباس الصفوي وهو ذو الفقار الكلهوري، واستمر في حكمها ستة أعوام، كثرت في عهده الهجرة من لورستان إلى بغداد واندمجوا مع السكان الأصليين. عباس العزاوي، تاريخ الفيلية، منشورات المجمع العلمي، (بغداد، ٢٠٠٣)، ص ٥، ٧؛ ينظر: ج.ج. لوريمر، دليل الخليج-القسم الجغرافي، ج ٤، ص ١٣٩٠-١٣٩٣.
- (^{٣٠}) فردوس عبد الرحمن كريم اللامي، المصدر السابق، ص ٦٧، ٨١.
- (^{٣١}) جبار عبد الله الجويراوي، تاريخ ميسان وعشائر العمارة، ط٢، (ميسان، ٢٠١٨)، ص ٩٩.
- (^{٣٢}) خليل علي مراد، العراق في العهد العثماني الثاني-دراسة في الإدارة العثمانية والحياة الاقتصادية ١٦٣٨-١٧٥٠، ط ١، (بيروت، ٢٠١٨)، ص ٦٥.
- (^{٣٣}) فردوس عبد الرحمن كريم اللامي، المصدر السابق، ص ١٧١.
- (^{٣٤}) مكي الجميل، البدو والقبائل الرحالة في العراق، (بغداد، ١٩٥٦)، ص ٣٢.
- (^{٣٥}) مصطفى علي مصطفى الحيارى، الإمارة الطائفة في بلاد الشام في القرنين ١٣-١٤ للميلاد، رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية في بيروت، دائرة التاريخ، ١٩٦٩، ص ٢٧-٢٨.
- (^{٣٦}) هناك اختلاف في تاريخ ولاية حسن باشا للمرة الثانية حاكماً في بغداد فلوريمر يذكر أنه تولى في سنة ١٧٠٢-١٧٢٣. ج.ج. لوريمر، دليل الخليج-القسم التاريخي، ج ٤، ترجمة: مكتب أمير قطر، (الدوحة، د.ت)، ص ١٧٧٣.
- (^{٣٧}) خالد حمود السعدون، الأوضاع القبلية في ولاية البصرة العثمانية ١٩٠٨-١٩١٨، ط١، الدار العربية للموسوعات، (بيروت، ٢٠٠٦)، ص ٩-١٠.
- (^{٣٨}) عبد العزيز سليمان نوار، داود باشا والي بغداد، ص ٩٥-٩٦.
- (^{٣٩}) مؤيد احمد خلف الفهد، المصدر السابق، ص ٦٧، ٧٠-٧١.

المصادر

أولاً: الرسائل والأطاريح الجامعية

- ١- أشرف محمد عبد الرحمن، تاريخ العراق السياسي-من نهاية حكم مدحت باشا إلى قيام حكم الاتحاديين ١٨٧٢-١٩٠٨، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٩٣.
- ٢- إلهام مَحْمُود كاظم الجادر، البصرة - دراسة في أوضاعها الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ١٨٠٣-١٨٦٩، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية التربية الأولى-ابن رشد، ١٩٩٠.
- ٣- جاسم محمد هادي القيسي، أحوال العراق الاقتصادية والاجتماعية ١٨٣١-١٨٦٩، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٥.
- ٤- عماد عبد السلام رؤوف العطار، الحياة الاجتماعية في العراق إبان عهد المماليك ١٧٤٩-١٨٣١، أطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٧٦.
- ٥- محمد احمد محمود، أحوال العشائر العراقية العربية وعلاقتها بالحكومة ١٨٧٢-١٩١٨، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٠.
- ٦- مصطفى علي مصطفى الحيارى، الإمارة الطائفة في بلاد الشام في القرنين ١٣-١٤ للميلاد، رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية في بيروت، دائرة التاريخ، ١٩٦٩.
- ٧- مؤيد احمد خلف الفهد، السياسة العثمانية تجاه العشائر العراقية (١٧٥٠ - ١٨٦٩)، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠٠٢.

ثانياً: الكتب

- أ- الكتب العربية
- ١- جبار عبد الله الجويبراي، تاريخ ميسان وعشائر العمارة، ط٢، (ميسان، ٢٠١٨).
- ٢- جعفر الخياط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ج١، ط١، (د. م، ١٩٧١).
- ٣- حسن شبر، تاريخ المشعشين وتراجم أعلامهم، مطبعة الآداب، (النجف، ١٩٦٥).
- ٤- حسين الزيايدي، أهواز جنوب العراق-أرضاً وسكاناً، ط١، (بيروت، ٢٠١٩).
- ٥- خالد حمود السعدون، الأوضاع القبلية في ولاية البصرة العثمانية ١٩٠٨-١٩١٨، ط١، الدار العربية للموسوعات، (بيروت، ٢٠٠٦).
- ٦- خليل علي مراد، العراق في العهد العثماني الثاني-دراسة في الإدارة العثمانية والحياة الاقتصادية ١٦٣٨-١٧٥٠، ط١، (بيروت، ٢٠١٨).

- ٧- طارق نافع الحمداني، مدن العراق وقبائله العربية في العصر الحديث، (بيروت) (٢٠١٠).
- ٨- عباس العزاوي، تاريخ الفيلية، منشورات المجمع العلمي، (بغداد، ٢٠٠٣).
- ٩- عبد الجليل الطاهر، البدو والعشائر في البلاد العربية، معهد الدراسات العربية العالية، (القاهرة، ١٩٥٥).
- ١٠- عبد الرزاق الحسني، العراق قديماً وحديثاً، ط١، (بيروت، ٢٠١٣).
- ١١- عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث-من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، (القاهرة، ١٩٦٨).
- ١٢- عبد العزيز سليمان نوار، داود باشا والي بغداد، ط٢، (بغداد، ٢٠١٣).
- ١٣- عبد الكريم محمود غرايبه، مقدمة تاريخ العرب الحديث، ١٥٠٠-١٩١٨، ج ١، (دمشق، ١٩٦٠).
- ١٤- عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠، ط١، مطبعة الإرشاد، (بغداد، ١٩٦٣).
- ١٥- فردوس عبد الرحمن كريم اللامي، لواء العمارة في العهد العثماني ١٨٦١-١٩١٤، (بغداد، ٢٠١٣).
- ١٦- متعب خلف جابر الريشاوي، إمارة الخزاعل في العراق-نشأتها وتطورها وعلاقتها المحلية والإقليمية ١٦٤٠-١٨٦٤، ط١، (النجف، ٢٠٠٩).
- ١٧- مكي الجميل، البدو والقبائل الرحالة في العراق، (بغداد، ١٩٥٦).
- ب- الكتب المعربة (المترجمة)
- ١- توماس فريديريك، وليمسون، التاريخ السياسي لشمر الجربا-قبيلة من الجزيرة (١٨٠٠-١٩٥٨)، ترجمة: جوزيف نادر بولص، ط١، (الأردن، ٢٠١٠).
- ٢- ج.ج. لوريمر، دليل الخليج-القسم التاريخي، ج ٤، ترجمة: مكتب أمير قطر، (الدوحة، د.ت).
- ٣- ج.ج. لوريمر، دليل الخليج-القسم الجغرافي، ج ٤، ترجمة: مكتب أمير قطر، (الدوحة، د.ت).

ثالثاً: البحوث المنشورة

- ١- جواد رضا رزوقي السبع، سياسة الحكومات المتعاقبة تجاه العشائر وأثرها على المجتمع العراق ١٨٦٩ - ١٩٥٨، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، ع ٢٧، ٢٠١٢.
- ٢- ضياء شكاره، المجتمعات العشائرية في العراق بين البداوة والاستقرار، مجلة العرفان، عدد خاص عن المملكة العراقية عام ١٩٥٥، مج ٤٢، ج ٥-٦، (بيروت، ١٩٥٥).
- ٣- مجلة لغة العرب، صاحب الامتياز انستاس ماري الكرمل، ج ٢، آب، ١٩١١.



مجلة دراسات تاريخية
Journal of Historical Studies